الأدب المصري
في عهد الولاة العباسيين
(132 – 254هـ)

كانت مصر في تلك الفترة ولاية تابعة للحكم العباسي؛ إذ كان العباسيون يولون عليها الولاة من قبلهم، حتى استقل بها أحمد بن طولون، وأسس دولته، وكان هؤلاء الولاة في تلك الفترة خاضعين لأوامر العباسيين، مدينين لهم بالطاعة، ولا تكاد تختلف هذه الفترة عما سبقها من الحكم الأموي إلا بالفوارق العامة التي كانت تفرق بين الدولتين.

وفي هذه الآونة أخلد العرب إلى الراحة، ونزلوا عن كثير من خشونتهم ونخوتهم، "وعاشروا أهل البلاد وساكنوهم"[1]، وألفوا الريف، وتزايدت أعدادهم، خاصة حينما تولى المأمون الخلافة؛ حيث عمل على إجلاء عدد كبير من العرب إلى مصر؛ لكسر شوكة الأقباط الذين كانت تزين لهم كثرتهم وقوتهم الخروج على الولاة، وتبع ذلك – بطبيعة الحال – انتشار اللغة العربية، وذيوع الإسلام على نطاق واسع.

وفي هذه الفترة كثرت الفتن والاضطرابات؛ فتن قام بها المصريون، وثورات دبرها العرب، وثورات قام بها العلويون مطالبين بالخلافة، وقد كانت هذه الحركات داعية إلى إثارة الحمية العربية والعصبية القبلية، وإيقاظ روح الشعر الذي جرى على ألسن الشعراء، متحدثين عما كان بمصر من حوادث واضطرابات.

وفي هذه الفترة تطورت العلوم؛ فبعد أن كانت دينية فقط، أصبحت في هذا الدور دينية أدبية، ورحل كثير من المصريين إلى العراق والحجاز طلبًا للعلم، كما وفد الكثير من العلماء والأدباء إلى مصر، مثل: الشافعي وأبي تمام وأبي نواس وربيعة الرقي، وأخذت مصر بحظ – لكنه قليل – من الثقافات الأجنبية، وبقسط عظيم من الثقافة العربية، وكل هذا كان له أثره في الشعر، فكان حظها فيه أوفر وأكثر وأرقى.

(1) الأدب العربي في مصر، ص 59.

ولعل أهم ما يميز الشعر المصري في هذه الفترة: العناية بالمعاني، والخلو من التعقيد، مع مسايرة الطبع إلى حد بعيد، ولم يفش فيه البديع الذي أثقل كاهل الأدب ببغداد، على يد مسلم بن الوليد وأبي تمام، أما الألفاظ فهي ليست شعبية، وليست جافة ضخمة، وإنما بين الضخامة واللين، وكما خلا – إلى حد بعيد – من الصنعة، فقد خلا من ذكر الدمن والأطلال التي ملئ بها الشعر العربي، ولم تكن القصيدة الواحدة مقسمة إلى غزل أو خمريات، ثم وصف الدمن فالصحراء فالإبل، ولكن من الملاحظ أن الشعراء المصريين قصدوا إلى غرضهم قصدًا دون تمهيد.

ومهما يكن من أمر فإن الشعر الذي وصل إلينا من هذا العصر يعطينا صورة لما كانت عليه الحالة في مصر؛ بل إنه كان صفحة من تطورات الأحداث والوقائع، وديوانًا للتقلبات السياسية والاجتماعية والدينية، وسجلًا من سجلات التاريخ المصري، وتدلنا هذه الأحداث على أن الشعر المصري بدأ ينمو ويقوى، ويتأثر بالبيئة المصرية الخالصة، ويعبر عما كان بمصر من اتجاهات وخواطر مختلفة، وألوان من الثقافات، وضروب من الحركات السياسية وغير السياسية.

اتجاهات الشعر في هذه الفترة:

اتجه الشعر في هذه الفترة اتجاهات متعددة، يظهر أهمها فيما يلي:

1- الاتجاه التاريخي:

ويقصد به الشعر الذي سجل أحداث التاريخ؛ من فتن واضطرابات سياسية وعصبية، وخلافات قبلية، وتحريض على الولاة، وثورات حربية، ويتضح هذا الاتجاه فيما يلي:

أ- الثورات السياسية:

وهي التي كان يقوم بها قبائل العرب ضد الولاة؛ لجور أحكامهم، وسوء سياستهم، وفساد حكمهم، ويلاحظ على الشعر الذي عبر عن هذه الثورة السياسية أنه كان من إنتاج شعراء مقيمين بمصر، وأنه حفظ لنا من قبل المؤرخين الذين اهتموا به اهتمامًا واضحًا، ويضاف إلى ذاك أنه طبع بالطابع المصري، وتأثر بالبيئة المصرية، وعبر عنها تعبيرًا جيدًا.

ومن هذه الثورات السياسية التي هبت في تلك الفترة، ثورة أهل الحوف والفسطاط، على موسى بن مصعب الخثعمي، الذي تولى حكم مصر سنة 167هـ، وكان ظالمًا غاشمًا متشددًا في جمع الخراج، وقد استطاع الثوار أن يقتلوه ويلقوا به في العراء سليبًا، لا حول له ولا طول، سنة 168هـ[1].

وهنا يقول سعيد بن عفير مترنمًا بهذا الانتصار (انتصار أهل الحوف على موسى بن مصعب):

أَلَـمْ تَـرَهُمْ أَلْـوَتْ بمُوسَـى سُـيوفُهمْ ... وكانـتْ سُـيوفًا لا تَـدِينُ لمُـتْرَفِ

فَـمَا برِحَـتْ بـهِ تعـودُ وتَبْتَـدِي ... إِلَى أنْ تُـرَوَّى مـن حِمـام مُـدنفِ

فأَصْبح مِن مِصْرَ وَمَا كانَ قدْ حَوى ... بمـصرَ مـن الـدُّنيا سَـلِيبًا بنَفْنَـفِ

ولكـنَّ أهْـلَ الحـوْفِ لِلَّهِ فـيهمِ ... ذَخَـائرُ إنْ لا يُنْفِـدِ الـدَّهرُ تُعْـرَفِ[2]

فهذه الأبيات تجمع بين المدح لأهل الحوف والتأييد لهم، وبين التشفي والشماتة في هذا الوالي، الذي صار صريعًا ملقى في العراء سليبًا من كل حول وطول، ولم ينفعه ما جمعه من مصر، وما حوى من أموال.

ومن هذه الثورات ثورة أبي الندى، مولى بلي، على عهد الحسين بن جميل، وقد كانت ثورة مؤيدة لثورة أهل الحوف، الذين امتنعوا من أداء الخراج، يقول أبو الندى محرضًا رفاقه على القتال:

أقـولُ إِذَا الرِّفـاقُ بـدَتْ لـوجهِي ... أَلاَ حُلُّـوا رِحـالَكُمُ وطِـيرُوا

وإنْ لَمْ تتركُوهـا فاسـتعِدُّوا ... لحـربٍ مثـلِ حاصِـبةٍ تغـورُ

(1) انظر: هذه الثورة: النجوم الزاهرة، ج 2، ص 54، 55، يقول ابن تغري بردي: (وكان موسى هذا من شر ملوك مصر، كان ظالمًا غاشمًا).
وانظر: الولاة والقضاة، ص 124 وما بعدها.
(2) الولاة والقضاة، ص 127.

أقــولَ لِــصُحْبَتِي كُــرُّوا علــيهمْ فلــيسَ يُهِــرُّهُمُ إِلا الكُــرورُ [1]

ومن تلك الثورات أيضًا ثورة الجروي، التي بدأت سنة 199هـ تقريبا[2]، وشغلت بال الولاة والخلفاء العباسيين أنفسهم، واستمرت فترة طويلة، وقد سجل الشعر أحداث هذه الثورة، ولسعيد بن عفير أبيات في ذلك، يقول فيها:

أَلاَ مَــنْ مُبلِــغُ الجَــرَويَّ عنِّــي مُغَلْغَلَــةً يعاتِــبُ أو يلــومُ
أقمــتَ تُنــازِلُ الأبطــالَ حتَّــى تميَّــزَ ذُو الحفيظــةِ والــسَّئُومُ
وَصُــلْتَ بِهِــمْ فــما وَهَنَــتْ قُــواهمْ وطــيرُ المــوتِ دائــرةٌ تحــومُ
ولــو هَجمــتْ جموعُــك حــينَ حَلُّــوا علــيهمْ بــادَ جَمْعُهُــمُ المُقــيمُ
وكيــفَ رأيــتَ دائــرةَ التــوانِي أتتْــكَ بــصحوِ نَحْــسٍ لا يُقــيمُ
أتتْــكَ وقــد أمِنْــتَ ونِمْــتَ كيــدًا لِــصِلٍّ لا ينــامُ ولا يُنِــيمُ [3]

ومن تلك الثورات ثورة أهل الحوف أيضًا على عهد الحسين بن جميل، حين امتنعوا عن أداء الخراج، وسخطوا على صاحب الشرطة كامل الهنائي، ولسعيد بن عفير أبيات يطعن في الأمير وأعوانه يقول فيها:

مـا كُنـت أحسَبُ أن الحِينَ يجمعُ مَا أمسَى بمصرَ مِنَ الأنـذالِ في الإمـرِ
أمَّــا الأمــيرُ فحَنَّــاجٌ وصــاحبُهُ عــلى الخـراجِ سَـوادِيٌ مِـنَ الأُكَـرِ
هــذا الهُنَــائِيْ مِـنَ الفُـسطاطِ يَخْلُفُـهُ والبــاهليُ عــلى أعمالِــه الأُخَــرِ
كــلٌّ لــصاحبِه شِــكْلٌ يلائِمــهُ فهــمْ سواسـيةٌ في اللُّـؤمِ كـالحُمُرِ

(1) الولاة والقضاة، ص 144.
(2) انتهت هذه الثورة سنة 201هـ.
(3) الولاة والقضاة، ص 165.

ومَـــا هُنَـــاءةُ إلا ظَلَـــفُ ذِي يَمَـــنٍ والبـاهليونَ مَـأْوى اللـؤمِ مـن مُـضرِ
فـــما يَـــسُوغُ لنَـــا عـــيشٌ فينفعُنَـــا مَـعْ مـا نَـرى لهـمُ مِـنْ رِقـةِ الخَطَـرِ[1]

فهذه الأبيات تمثل شعر سعيد بن عفير، الذي كان لسان المقاومة الشعرية ورافع علمها في مصر آنذاك، ويبدو أن سعيدًا هذا قد اشترك في المقاومة قولًا وعملًا، وهو هنا يهجو الأمير هجاء مرًّا صريحًا لا مواربة فيه، كما يهجو كل من اتصل به، والحق أن من يقرأ أهاجي سعيد بن عفير، يراه معتمدًا فيهما على التصريح المباشر أحيانًا، وعلى التصوير الساخر أحيانًا أخرى.

ب- العصبيات العربية وفتنها:

لم تظهر العصبية العربية بين القبائل في مصر بالصورة نفسها التي كانت عليها في البلاد الإسلامية الأخرى، وربما يرجع ذلك إلى أن أكثر العرب الذين استقروا بمصر كانوا من اليمنية، وفي مصر من الخيرات الكثيرة التي كانت تكفي الجميع، فلم يحتاجوا إلى التنازع من أجل الرزق، وبالإضافة إلى ذلك فالقبائل قد تفرقت ولم تتحيز في أحياز متقابلة، وإنما اختصت كل قبيلة - تقريبا - بمنطقة خاصة، عاشت فيها آمنة، ولكن هذا لم يمنع أن بعضها قد تنازع في سكنى منطقة واحدة أو مناطق متجاورة.

ومن ثم لم يصلنا شعر مصري قيل في منازعات قبلية إلا قليلًا، وذلك مثل الشعر الذي قيل في السباق بين فرسي بني يحصب ومراد (الجناح والزعفران)، وقصة هذا السباق تذكرنا بقصة داحس والغبراء في العصر الجاهلي، وقد دار حول هذا السباق شعر بين يحيى الخولاني وعبد الله التجيبي، يقول عبد الله التجيبي في ذلك:

طَلَبْـــتَ فلـــم تـــأْلُ حُـــسنَ الطَّلَـــبْ ورُمْـــتَ عظـــيمًا ولمَّـــا تُـــصِبْ
وعوَّلـــتَ موتًـــا عـــلى رَمْـــيهِمْ بقـوسِ الـضَّلالِ ونيـل الكـذب[2]

(1) الولاة والقضاة، ص 142، 143.
(2) الولاة القضاة، ص 403.

عليه يحيى الخولاني:

أَلا أيُّهـــــا الـــــشاعرُ المُتَتَــــدبْ يُحــامِي عـــن العُمَـــريِّ العَطـــبْ
ورامِــــي مُـــــرادٍ وخَوْلانَهَـــا بِنبْـلٍ مِـنَ الجهْـلِ غَـيْرَ الـصُّيبْ (1)

ومن شعر العصبيات القبلية ما وصل إلينا من فخر الحضارمة إذا ولي أحدهم منصبًا، ومن ذلك أن لهيعة بن عيسى ولي القضاة سنة 199هـ، فقال شاعر حضرمي (لم تذكر لنا المصادر اسمه):

لقـــدُ وَلِيَ القَـــضَاءَ بكُـــلِّ أرضٍ مِـــنَ الغُـــرِّ الحـــضَارِمَةِ الكـــرامِ
رَجـــالٌ لـــيسَ مِـــثْلَهُمُ رجـــالٌ مـن الـصّيدِ الجَحَاجِحَـةِ الـضِّخَامِ (2)

وقال شاعر آخر يسمى يزيد بن مقسم الصدفي:

يـا حَـضْرَموتُ هنيئًـا مـا خُصِـصْتِ بـهِ مِـنَ الحُكومـةِ بـينَ العُجْـمِ والعـربِ
في الجاهليـــةِ والإســـلامِ يعرفُـــه أهلُ الرِّوايةِ والتفتيشِ والطَّلبِ (3)

ج- الفتن بين العرب والمصريين:

كان العرب في مصر طبقة معتزة بنفسها، فخورة بذاتها وشخصيتها؛ إذ ما زال لديهم النعرة والعنجهية العربية، وقد وصل الأمر بهذه الطبقة أنها لا تقبل أن يسمو إليها المصريون؛ ولذا كانت العلاقة بين العرب والمصريين تسوء في بعض الأحيان؛ مما جعل القبط يقومون بثورات ابتغاء طلب المساواة بالعرب، وكان العرب من جانبهم يعملون على إخماد هذه الثورات.

ولعل قضية أهل الحرس تبين إلى أي مدى كانت العلاقة بين العرب والمصريين، وتتلخص هذه القضية في أن جماعة من القبط قد أسلموا وعرفوا بأهل الحرس؛ لأنهم

(1) الولاة القضاة، ص 403.
(2)، (3) الولاة القضاة، ص 426.

كانوا حرسًا للأمراء، ولكن العرب تحرشوا بهم وآذوهم، فجمع أهل الحرس أموالًا من بينهم، دفعوها إلى القاضي العمري؛ ليثبت لهم نسبًا عربيًّا، وأتوا بجمع من أعراب الحوف ورشوهم، فشهدوا أمام القاضي العمري بأن أهل الحرس من العرب، وأن نسبهم ينتهي إلى بني حوتكة القضاعيين، فسجل لهم القاضي نسبهم وهنا ثارت ثائرة العرب، وهجا بعض الشعراء القاضي العمري وأهل الحرس، وكان على رأس هؤلاء الشعراء يحيى الخولاني الذي لم يعجبه هذا الأمر، فانطلق قائلًا:

ومـــن أَعْجـــبِ الأشـــياءِ أنَّ عِـــصابةً ... مِـنَ القِـبْطِ فينَـا أصْـبَحُوا قَـدَ تعَرَّبُـوا

وقـــالُوا أبونَـــا حَوْتَـــكٌ وأبـــوهمُ ... مـــن القِـبْطِ عِلْـجٌ حَبلُـهُ مُتذَبْـذِبٌ

وجاءُوا بأجلافٍ مِنْ الحَوْفِ فادَّعَوْا ... بـــأنَّهُمُ مَـــنهمُ سِـــفَاهًا وأجَلبُـــوا

أَلاَ لعَـنَ الـرَّحمنُ مَـنْ كـان راضِـيًا ... بِهِمْ رَغْمًا ما دامتِ الشَّمسُ تَغْرُبُ[1]

وفي ذلك يقول أيضًا:

أَلاَ قُـــــمْ فانـــــدُبِ العرَبَـــــا ... وابـــــكِ الـــــدِّينَ الحَـــــسَبَا

ولا تَنْفَـــــكَّ تَنْعَـــــى العَـــــدْ ... لَ لمَّـــــا بـــــانَ فاغْتَرَبَـــــا

لقـــدْ أحـــدثَ قـــاضِي الـــسُّـ ... ـــوءِ في فُـــسْطاطِنا عَجَبَـــا[2]

وفي ذلك يقول المعلى الطائي ساخرًا ومتندرًا:

فـــاشْرَبْ عَـــلَى صَرْفِ الزمـــا ... نِ بِـــمَا ارْتَـــشَيْتَ مِـــنَ الحواتِـــكْ

إنْ كُنـــتَ قَـــدْ ألحقـــتَهُمْ ... عُرْبًـــا فـــزوِّجِهُمْ بَنَاتِـــكْ[3]

(1) الولاة والقضاة، ص 399.

(2) الولاة والقضاة، ص 400.

(3) الولاة القضاة، ص 401.

2- الاتجاه الديني:

ونعني به الشعر الذي سجل ميولًا دينية، وتحدث عن نزعات مذهبية واتجاهات عقدية، ويتمثل ذلك في قضايا أهمها ما يلي:

أ- قضية خلق القرآن:

أصاب مصر من فتنة خلق القرآن ما أصاب الأقطار الإسلامية الأخرى، وامتحن الفقهاء امتحانًا شديدًا، وقد بدأت هذه المحنة أيام الخليفة المأمون، حين طلب إلى أخيه أبي إسحق المعتصم أن يكتب إلى نصر بن عبد الله أمير مصر[1] أن يمتحن القضاة والفقهاء والشهود، فمن أقر منهم أن القرآن مخلوق، وكان عدلًا، قبلت شهادته، وأقر بموضعه.

وفي خلافة الواثق أمر بامتحان الناس بخلق القرآن، وأمر أن يكتب على باب المساجد: "لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق"، وممن امتحن بذلك القاضي هارون بن عبد الله، وذو النون المصري، حتى إنه لم يبق أحد من فقيه ولا محدث ولا مؤذن ولا معلم حتى أخذ بالمحنة، فهرب كثير من الناس، وملئت السجون"[2].

وكان محمد بن أبي الليث قاضي مصر آنذاك قد أخذ الفقهاء المصريين بالامتحان في القول بخلق القرآن، واشتد عليهم إلى درجة أنه "منع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي من الجلوس في المسجد، وأمرهم ألا يقربوه"[3]، واشتد عليهم، فعاداه كثير من المصريين، وهاجمه شعراؤهم، بيد أن شاعرًا يدعى الحسين بن عبد السلام هو الذي

(1) يشير ابن تغري بردي إلى أن هذه المحنة قد وقعت في مصر سنة 218هـ، وهي السنة الثانية من ولاية نصر بن عبد الله؛ إذ يقول: "وفيها كانت المحنة ... أعني القول بخلق القرآن، وأجاب غالب علماء الدنيا بذلك، ما خلا جماعة يسيرة، وعظم البلاء بالعلماء، وضربوا وأهينوا، وردعوا بالسيف وغيره". النجوم، ج 2، ص 224.

(2) الولاة والقضاة، ص 450، وانظر: أيضًا: ص193.

(3) الولاة والقضاة، ص 451.

ناصره وأيده في شدته على فقهاء مصر وعلمائها، وله قصيدة يقول فيها مخاطبًا ابن أبي الليث:

وُلِّيتَ حُكمَ المسلمينَ فلم تَكُنْ ... بَرِمَ اللِّقاءِ ولا بِفَظٍ أَزْوَرِ

وَلَقدْ بَجَسْتَ العلمَ فِي طُلَّابِه ... وَفَجَرْتَ مِنهُ منابعًا لمْ تُفْجَرِ

وَحَطَّمْتَ قولَ الشافِعيِّ وصحبِه ... ومقالةُ ابنِ عُلَيةٍ لَمْ تُصْحَرِ

والمالِكيةُ بعدَ ذِكْرِ شَائعِ ... أَخْمَلْتَهَا فكأنَّهَا لَمْ تُذْكَرِ

كُلٌّ يُنَادِي بالقرآنِ وخلْقِهِ ... فَشَهْرتَهُمْ بمقالةٍ لم تُشْهَرِ

لما أَرَيْتَهُمُ الرَّدَى مُتَصَوَّرًا ... زَعَمُوا بأنَّ اللهَ غيرُ مُصَوَّر[1]

والحق أن هذه المحنة قد اشتدت واستمرت فترة طويلة، إلى درجة أن البعض قد هرب من وجه ابن أبي الليث، مثل يوسف بن أبي طيبة، وأحمد بن صالح، اللذين هربا إلى اليمن، ومثل محمد بن سالم القطان وأبي يحيى الوقار [2]، ومثل ذي النون المصري الذي رأى أن يرجع، ولما رجع وقع في يدي أبي الليث، وهنا نرى الحسين بن عبد السلام يقول:

أحْجَرْتَ يوسفَ في خِزَانةِ بيتِهِ ... فطوتْهُ عنْكَ وطالَ ما لَمْ يُحْجَرِ

وثَوَى ابنُ سالِمٍ خُفْيةً في بيتِهِ ... ثم امتَطَى غَلَسَ الظلامِ الأسترِ[3]

ومن خلال هذا الشعر الذي ناصر فيه الشاعر ابن أبي الليث ضد المصريين، يتضح لنا أن هذا الشاعر كان بعيدًا عن مشاركة الجماهير ومشكلاتهم، والتعاطف معهم.

---

(1) الولاة والقضاة، ص 452.

(2) الولاة والقضاة، ص 453.

(3) الولاة القضاة، ص 453، 454.

ب- الزهد والتصوف[1]:

كان الصحابة الذين دخلوا مصر النواة الأولى لمدرسة الزهد والتصوف في مصر، ولكن التصوف الذي عرفته مصر في الفترة الأولى لم تدخله التيارات الفلسفية ولا النظريات التي نجدها عند المتأخرين من الصوفية.

وفي هذه الفترة عرفت مصر رجلين من أكابر الزهاد والمتصوفة هما الإمام الشافعي وذو النون المصري، وكان الشافعي ممثلا لتيار الزهد الحقيقي أصدق تمثيل، وكان ذو النون المصري أول صوفي تحدث في المعرفة، ولذلك سنكتفي بهذين الرجلين نموذجين للزهد والتصوف آنذاك.

1- الشافعي:

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع [2]، ولد بغزة، وانتقل إلى مكة؛ حيث حفظ القرآن الكريم؛ وأتم دراسة علوم الحديث والفقه واللغة والأدب، ثم رحل إلى المدينة؛ حيث تلقى الحديث على يد الإمام مالك، وأخذ ينتقل من المدينة إلى مكة إلى بغداد، حتى استقر به المقام بمصر، حيث دخلها سنة 199هـ، وتوفي بها سنة 204هـ وقيل سنة 205هـ.

والشافعي هو أحد الأئمة الأربعة في الفقه، وله شهرة علمية واسعة، بالإضافة إلى شهرته الأدبية، وله ديوان شعر يدل على موهبة خصبة وذوق رفيع وملكة راسخة في نظم الشعر، ويتسم شعره بالنزعة الدينية التي تغلب عليه، كما يتميز بدعوته إلى الزهد، والابتعاد عن زخرف الدنيا وبهرجها، ومفاتن الحياة ومتاعها، مع العمل للآخرة والدنيا معًا، كما تغلب عليه النزعة الوعظية، والدعوة إلى التوكل، لا التواكل، مع القناعة والسعي إلى كسب الرزق الحلال.

---

(1) انظر: التصوف في مصر قبل القرن السابع الهجري، د.غريب محمد علي، مجلة الأزهر، عدد فبراير ومارس، سنة 1985.

(2) وفيات الأعيان، ج 2، ص 31، إحياء التراث، بيروت، ط1، سنة 1977م.

وإليك طائفة من شعره، تمثل شيئًا من هذه النزعة الدينية:

يقول في الصبر على الأيام:

دَعِ الأيَّـــامَ تَفْعَـــلُ مـــا تَـــشَاءُ ... وطِـبْ نَفْـسًا إذا حكـمَ القَـضَاءُ

وَلاَ تَجْـــزَعْ لِحَادِثَـــةِ اللَّيـــالِي ... فَـمَا لِحَـوادِثِ الـدُّنْيَا بَقَـاءُ

دَعِ الأيَّـــامَ تَغْـــدِرُ كُـــلَّ حـــينٍ ... فـمَا يُغْنِـي عـنِ المَـوْتِ الـدَّوَاءُ(1)

ويقول في فضل الله على الإنسان:

تَعْـصِي الإِلهَ وأَنْـتَ تُظْهِـرُ حُبَّـه ... هـذا مُحَـالٌ في القيـاسِ بَـدِيعُ

لَـوْ كـانَ حُبُّـكَ صَـادِقًا لأطعْتَـهُ ... إنَّ المُحِـبَّ لِمَـنْ يُحِـبُّ مُطِيـعُ

فِي كُـلِّ يـومٍ يَبْتَـدِيكَ بِنِعْمَـةٍ ... مِنْـهُ وأَنْـتَ لِـشُكرِ ذَاكَ مُـضِيعُ(2)

ويقول في التوكل:

تَوكلْـتُ فِي رِزْقِـي عَـلَى اللهِ خَـالِقِي ... وأيْقَنْـتُ أنَّ اللَّهَ لا شَـكَّ رَازِقـي

فَفِـي أى شيءٍ تـذهبُ الـنفسُ حَـسْرَةً ... وَقَـد قَـسَمَ الـرَّحمنُ رِزْقَ الخَلائِـقِ(3)

ويقول:

شَـكَوْتُ إِلَى وَكيـع سُـوءَ حِفْظِـي ... فَأرْشَـدَنِي إِلَى تَـرْكِ المَعَـاصِي

وَأَخْـبَرَنِي بـأَنَّ العِلـمَ نُـورٌ ... ونـورُ اللهِ لا يُهـدَى لِعَـاصِي (4)

---

(1) ديوان الشافعي، ص 28، 29، تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي، ط الكليات الأزهرية بدون تاريخ، وانظر: ديوانه: ص 10، تدقيق: صالح الشاعر، ط مكتبة الآداب سنة 2006.

(2) ديوان الشافعي، ص 73.

(3) ديوان الشافعي، ص 81، ص 70، ط الآداب.

(4) ديوان الشافعي، ص 70، ص 58، ط الآداب.

وإلى جانب ذلك له شعر يحمل لمحات صوفية عرفانية، وذلك مثل حديثه عن العارفين وشرابهم وأحوالهم، ومثل أمنيته في أن يمن الله عليه بشربة أنس، وجذبة قرب، لا يظمأ بعدها أبدًا ولا يضام، وهذا ما نراه في قوله مخاطبًا رب العزة.

أَذِقْنَا شَرَابَ الأُنْسِ يَا مَنْ إِذَا سَقَى مُحِبًّا شَرابًا لا يُضَامُ ولا يَظْمَا[1]

2- ذو النون المصري:

هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم، من أعلام التصوف في مصر؛ بل وفي العالم الإسلامي، ولد سنة 155هـ، وتوفي سنة 245هـ[2].

ويعده معظم الباحثين المؤسس الحقيقي الأول لطريق الصوفية؛ فلقد كان الناس قبله يتكلمون في الزهديات فحسب، ولكنه حينما جاء فسر الإشارات الصوفية، وتكلم في الطريق الصوفي، وكان من أوائل – إن لم يكن أول – من تحدث من الصوفية عن المعرفة وأقسامها وأنواعها ودرجاتها بكلام دقيق[3]، وأول من تكلم في "ترتيب الأحوال ومقامات الأولياء"[4]. يقول ذو النون عن المعرفة (معرفة الله): "عرفت الله ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربى"[5]، ويقول:

قُلُوبُ العَارِفِينَ بِرَوضَةٍ سَمَاوِيةٍ مِنْ دُونِهَا حُجُبُ الرَّبِ[6]

(1) ديوان الشافعي، ص 96، ص 88، ط الآداب.

(2) وفيات الأعيان، ج 1، ص 163، ط دار إحياء التراث، بيروت، سنة 1997؛ وانظر: الرسالة القشيرية، ص9، ط البابي الحلبي، سنة 1959، وانظر: ذو النون المصري مؤسس التصوف الإسلامي، د. غريب محمد علي، ط جنوب الوادي بقنا 2013.

(3) انظر: مدخل إلى التصوف الإسلامي، د. أبو الوفا التفتازاني، ص120، ط دار الثقافة، مصر، سنة 1974.

(4) في التصوف الإسلامي وتاريخه، رينولد نيكلسون، ص 7، ط لجنة التأليف والترجمة، سنة 1969م.

(5) الرسالة القشيرية، ص 156.

(6) طبقات المشايخ، لوحة 8، السلمي، مصور بجامعة القاهرة، برقم 26032.
وانظر: "الطبقات الصوفية"، السلمي، ص 13، تحقيق د. أحمد الشرباصي، ط دار الشعب، 1998م.

ويرتبط حديث ذي النون المصري عن المعرفة بحديثه عن الحب الإلهي؛ لأن هذا الحب هو الطريق الموصل إلى المعرفة الصوفية، وشعره في هذا المجال – مجال الحب الإلهي – يفيض صبابة ووجدًا وذوبًا وعشقًا، وفيه إشراق وشفافية، ويبعد عن الإغراب والإكثار من الرموز، ومن ذلك قوله:

أَمــوتُ ومَــا مَاتَــتْ إِلَيــكَ صَــبَابَتِي ... ولا قُـضِّيتْ مـن صِـدْقِ حُبِّـك أَوْطَـارِي

مُنَــاي المنــى كــلُّ المُنــى أنْــتَ لِي مُنَــى ... وأنْــتَ الغِنَــى كــلُّ الغِنــى عِنْــد إِقْتَــارِي

وَأَنْــتَ مَــدَى سُــؤْلِي وَغَايَــةُ رَغْبَتِــي ... وَمَوْضِــعُ شَــكْوَايَ ومَكْنُــونُ إِضْــمَارِي

تَحَمَّــلَ قَلْبِــي فِيــكَ مَــا لا أَبُثُّــه ... وإِنْ طَـالَ سُـقْمِي فِيـكَ أَوْ طَـالَ إِضْرَارِي[1]

وعلى هذه الشاكلة تمضي أبيات ذي النون المصري في المعرفة والعشق الإلهي، متحدثة عما كان يعانيه الشاعر من عشق ووجد وخوف ورجاء ومحبة وشوق ومكابدة وصبر، ومن أجل ذلك كله يعد ذو النون المصري الصوفي الأول في مصر، كما يعد المؤسس الحقيقي للتصوف العرفاني.

3- اتجاهات عامة:

ونقصد بها الأغراض العامة التي يشترك فيها الشعراء؛ من مدح وهجاء ورثاء وغير ذلك، وليس بعجيب أن نرى هذه الأغراض في الشعر المصري؛ فكل الشعر العربي في جميع عصوره لم يخل منها، ويتضح ذلك على الوجه التالي:

أ- المدح:

وجد المدح في الشعر المصري في هذه الفترة، وكان مدحًا فيه صدق وحرارة، وكان بعيدًا عن الإسراف والمبالغة بوجه عام، وخير من يمثل ذلك الشاعر سعيد بن عفير، الذي مدح هبيرة بن هشام، وكان هبيرة هذا قد عُذِّبَ وكاد يقتل؛ لأنه أجار إبراهيم

(1) طبقات المشايخ، لوحة 8، مصور بجامعة القاهرة رقم 26032.

الطائي الثائر على الوالي المطلب الخزاعي، ولم يقبل هبيرة - رغم ما لاقاه من التعذيب - أن يسلم إبراهيم للوالي، وفي ذلك يقول سعيد بن عفير مادحًا هبيرة:

لعمْـرِي لَقَـدْ أَوْفَى وَفَـاقَ وفـاؤُه ... هُبـيرةُ في الطَّـائِي وفـاءَ الـسَّموأَلِ

وَقَـاهُ المَنايَـا إذْ أَتَـاهُ بنفـسِه ... وقـدْ بَرِقَـتْ في عَـارضٍ مُتَهَلِّـلِ

فـما انْفـكَّ محبوسًـا ومُطَّلَـبٌ لـه ... عليـهِ قـصيفٌ بالوعيـدِ المهـوِّلِ [1]

فالشاعر هنا لم يمدح بقصد الرفد والنوال، وإنما مدح خصال الرجل وخلقه أكثر من أي شيء آخر، ولم يتكسب بشعره، ولم يبغ مالًا أو عطاء.

ولكن على الجانب الآخر، وجد بين الشعراء المصريين من تكسب بشعره مثل المعلى الطائي، الذي اتصل بكثير من الولاة والأمراء ومدحهم، ومثل الحسين بن عبد السلام، المشهور بالجمل الأكبر، الذي اتصل بابن المدبر والي خراج مصر ومدحه، وكان (ابن المدبر إذا مدحه شاعر فلم يرض شعره، قال لغلامه: امض به إلى المسجد الجامع فلا تفارقه حتى يصلي مائة ركعة، ثم خله، فتحاماه الشعراء إلا الأفراد المجيدين، فجاءه أبو عبد الله الحسين بن عبد السلام المصري المعروف بالجمل، فاستأذنه في النشيد، فقال: قد عرفت الشرط؟ قال: نعم، وأنشده:

أَرِدْنَـا في أبي حـسَنٍ مـديحًا ... كـما بالمـدح يُنْتَجـعُ الـوُلاَةُ

فقلنـا: أكـرمُ الثَّقلـينِ طُـرًّا ... وَمَـنْ كَفَّـاهُ دِجْلـةُ والفـراتُ

فَقَـالوا: يَقْبَـلُ المِـدْحاتِ لَكِـنْ ... جَـوائزُه علـيْهنَّ الـصَّلاةُ

فقلـتُ لهـم: ومَـا تُغْنِـي صَـلاَتِي ... عِيَـالِي إنَّـما الـشَّأنُ الزَّكَـاةُ

فأمَّـا إذْ أبـى إلَّا صَـلاتِي ... وعـاقَتْنِي الهُمـومُ الـشَّاغِلاتُ

فيـأمرُ لِي بِكَـسْرِ الـصَّادِ منْهـا ... فتُـصْبِحُ لِي الـصَّلاةُ هـي الـصِّلاتُ

(1) الولاة والقضاة، ص 152.

فضحك واستظرفه، وقال: من أين أخذت هذا؟ قال: من قول أبي تمام الطائي:

هُـنَّ الحَـمامُ فـإنْ كـسَرْتَ عِيَافَـةً مِـن حَـائِهِنَّ فـإنَّهن حِمَـامُ

فأحسن جائزته [1].

والحق أننا لا نكاد نجد بين أيدينا من الشعر الذي بقي معاني جديدة في المدح؛ بل اتخذ شعراء مصر المعاني نفسها التي اتخذها غيرهم من وصف الممدوح بالجود والكرم والشجاعة، وغير ذلك من الصفات المعهودة في المدح.

ب- الهجاء:

كان الشعراء يهجون الولاة والقضاء ويحصون مساوئهم، وأكثر الشعراء هجاء في ذلك العصر هو يحيى الخولاني، الذي وقف بالمرصاد للقاضي العمري، والشاعر يحيى بن الفضيل، الذي هجا الوالي ابن إسحق الضبي ورماه بدين الخوارج؛ لأن هذا الوالي كان يؤخر صلاة الصبح إلى ما بعد شروق الشمس، وكان ينادي في شهر رمضان على الناس بالسحور، وهذان الأمران لم يعجبا الشاعر، فأرسل إلى الخليفة قصيدة على هيئة رسالة يقول فيها:

مَـنْ فَتَـى يُبْلِـغُ الإِمَـامَ كتابًـا عَرَبيًّـا ويقْتَـضِيهِ الجَوابَـا

بِـئْسَ واللهِ مَـا صَـنَعْتَ إليْنَـا حِـينَ وَلَّيتَنَـا أمـيرًا مُـصَابَا

خَارِجيًّـا يـدِينُ بالـسَّيفِ فينَـا ويـرَى قَتْلَنَـا جميعًـا صَـوَابًا

مَـرَّ يمْـشِي إلى الـصلاةِ نَهـارًا ويُنـادِي الـسُّحورَ ضَـلَّ وخَابَـا [2]

(1) زهر الآداب، الحصري، ج 2، ص 37، ط دار الجيل، بيروت، ط رابعة بدون تاريخ، وانظر: المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد الأندلسي، ج 1، ص 270.

(2) الولاة والقضاة، ص 201.

والملاحظ أنه لم يصلنا شيء من الهجاء بين الشعراء كالذي نراه بين شعراء الأمصار الأخرى. ومن الملاحظ أيضًا أن الهجاء الذي وصل إلينا يكاد يكون ذمًّا للمهجو دون تعرض لأسرته؛ إذ لم يسرف الشعراء في الهجاء كما لم يسرفوا في المدح.

ج- في الرثاء:

المعروف عن المصريين - منذ القدم - الإسراف في البكاء والنحيب؛ حزنًا لوفاة صديق أو قريب، وكان شعراء العرب يسرفون في الرثاء، ولكن الأمر هنا مختلف؛ فلقد قصر شعراء هذه الفترة في مصر رثاءهم على سرد مناقب الميت، وكيف لاقى الموت بشجاعة وصبر، وتحدثوا عن صبر المتلقي؛ لأن هذا مصير كل حي.

ومن القصائد التي وصلتنا في هذا الصدد قصيدة طويلة للمعلى الطائي يرثي فيها جارية له تسمى "وصفًا"، كان يحبها لأدبها وعلمها وظرفها، وفي هذه القصيدة نرى الشاعر يناجي الموت وينادي ويعاتبه، كأنه شخص ماثل أمام عينيه ويلومه؛ لأنه اختطف منه جاريته شق نفسه وتوأم روحه، وفيها يظهر الحزن الحقيقي والألم الشديد لهذا الفراق، ولكنه لم يندب أو ينتحب، فهو يحس أنه سيلتقي بها يوم القيامة، يقول المعلى الطائي:

يَـا مَـوْتُ كَيـفَ سَـلَبْتَنِي وَصْـفَا ... قَـدَّمْتَها وتَرَكْتَنِـي خَلْفَـا

هَـلَّا ذَهبْـتَ بِنَـا مَعًـا فَلَقَـدْ ... ظَفِـرَتْ يَـداكَ فـسُمْتَنِي خَـسْفَا

وأخـذْتَ شِـقَّ الـنَّفْسِ مِـنْ بَـدَنِي ... فقبرْتَـه وتَرَكْـتَ لِي النِّـصْفَا

يَـا مـوتُ مَـا أبْقَيْـتَ لِي أحـدًا ... لَمَّـا رفعْـتَ إِلَى الـبِلَى وَصْـفَا [1]

ويستمر في قصيدته قائلًا:

يـا مَـوتُ أنـتَ كَـذا لِكُـلِّ أخِـي ... إِلْـفٍ يـصونُ بِـبِرِّه الإِلْفَـا

(1) العقد الفريد، ج 3، ص 233، 234، تحقيق د. عبد المجيد الترجيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ثالثة، سنة 1987م.

خَلَّيتَنِـــي فـــردًا وبنْـــتَ بِهَـــا ... مـــا كنـــتُ قبلـــكَ حـــاملًا وَكْفَـــا
فتركْتَهـــا بـــالرَّغْمِ في جَـــدَثٍ ... للـــريحِ تَنْـــسفُ تُرْبَـــه نَـــسْفَا
أســـكنْتَها في قَعْـــرِ مُظْلِمَـــةٍ ... بيتًـــا يُـــصافِحُ تُرْبُـــه الـــسَّقْفَا
بَيْتًـــا إِذَا مَـــا زَارَهُ أحـــدٌ ... عَـــصَفَتْ بـــه أيـــدِي الـــبِلَى عَـــصْفَا
لا نَلْتَقِـــي أبـــدًا مُعَاينَـــةً ... حتَّـــى نقـــومَ لربِنَـــا صَـــفًّا
يـــا قـــبرُ أبْـــقِ عـــلَى مَحَاسِـــنِها ... فلقـــدْ حَويْـــتَ الـــبِرَّ والظَّرْفَـــا [1]

***

(1) العقد الفريد، ج 3، ص 233، 234، تحقيق د. عبد المجيد الترجيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ثالثة، سنة 1987م.